التقوى في ميزان الإسلام

دكتور محمود محمد عمارة

مدرس بكلية أصول الدعوة

التقوى .. وظيفة الايمان :

يقولون :

ان الوظيفة تخلق العضو .

فاذا كان المشى وظيفة رجلك . فان رجلك هذه تظل صالحة للحركة ما دامت تمارسها على أرض الواقع .

ولو أنك وضعتها فى قالب يجمد نشاطها .. فقدت حياتها .. لأنك عطلت وظيفتها التى لا تكون الا بها .

ومن طبيعة الانسان الى طبيعة الايمان .. نجد نفس المعنى :

فإذا لم يتحرك الإيمان ليصبح فى السلوك عملا بعد أن كان فى القلب أملا .. توقف ذلك الإيمان عن الحركة .. وفقد فى نفس الوقت قدرته على صنع المواقف ومواجهة الحياة ..

ان الاستفتاء على وجود الإيمان فى القلوب سيأخذ بالطبع أغلبية مطلقة بين جماهير المؤمنين ! .

ولكن .. عندما يوضع ذلك الإيمان على محك التجربة .. عندما يستفتى عليه كأمانة فى المتجر .. وجودة فى المصنع .. واخلاص فى

الدرس .. وتضحية فى الازمات .. سوف تنحسر النسبة نحو الصفر .. ان لم تكنه !!

ومن أجل ذلك يأمرنا الحق سبحانه وتعالى بالتقوى .. كوظيفة للايمان يتحرك بها الانسان .. ليتحول بالتقوى من شعاع خافت .. وذبالة تتراقص .. الى قوة بانية محركة .

وذلك قوله عز وجل :

(قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

فلم نكلف بنداء العبودية أن نؤمن .. لكننا بحكم الإيمان الحاصل فعلا مأمورون بالتقوى كصورة عملية للعقيدة ..

اننا عباد الله .. ومؤمنون به .. فلنتقدم على طريق الكمال خطوة يتم بها الميثاق ويكون بها الالتزام .. بالتقوى :

(... اتقوا ربكم)

السفر البعيد !

ولكن الزاد هنا قليل ، والشقة بعيدة .. والتكليف شاق ؟

والذى خلق الانسان أدرى بطبعه .. ومن ثم .. يمهد له السبيل .. ويحمله برفق ولين ليخوض الغمرات .. ويجتاز مراحل الطريق بسلام .. ونحن واجدون فى كلمات الآية الكريمة ومضات من هذا الود وتلك الرحمة تعين على أمر الله :

فالنداء بوصف العبودية وما فيه من حنو .. ووصف الإيمان وما يفرضه من الوفاء بالتزاماته .. ثم اضافة المنادى الى ربهم وما يوحى به

من سابق النعم ولا حقها أيضا . مع إحساسك بأنك على أوفى معانى الإحسان بهذه التقوى . كل أولئك باعث للهمم من مراقدها لتنطلق عاملة آملة . ولترتقى بهذه الحركة المباركة قمة الاحسان :

(للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة)

ولا يرضى منك الاسلام أن تستسلم للواقع الضاغط . على حساب تقواك بفضائلها .

فإذا سمحت لك الظروف بالحركة صاعدا فى مراقب الكمال الانسانى فيها . وإلا . (فأرض الله واسعة) ولا عذر لك فى البقاء بأرض لا تحقق فيها انسانيتك .

وإذا قال الشاعر :

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام

فإن هناك ما هو أعز من قومك وأكرم . وهو : دينك الذى أكرمك الله به . ومبادئك التى استخلفك عليها .

وصحيح أن فراق الأوطان مر المذاق لدى الانسان . ولكن عدتك من الصبر الجميل تستعلى بك فوق المتاعب والمصاعب .

ذلك بأن الصبر ضياء . والحياة فى سناه أوسع ما تكون . كما وأن اليأس ظلام . فالحياة فى أسره أضيق ما تكون :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

الأسوة الحسنة :

فإذا أنت أخذت نفسك بالصبر سبيلا الى تحقيق التقوى . كأخلاق عملية فى كل اتجاه . وعلى كل مستوى .

فأنت مطالب بأن ترفع بصرك الى أعلى . لتملأ عينيك بمشهده ﷺ . أنه أمامك يمشى على ذات الطريق ! :

(قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت أن أكون أول المسلمين) فهو لا يأمرك بالتقوى من خلف المكتب الوسيم . أو عبر مكبر الصوت . لا . أنه يتقلب أمامك فى دروب الحياة محققا مضمون الإيمان . لتنسج على منواله . وتترسم خطاه .

فى رحلة لا ينجح فيها الا العاملون . الذين يدعون بهذا العمل مفهوم الإيمان فى القلب . أى أن صور النشاط الانسانى كلها فوق أنها مقصودة لذاتها . تثبت فى ذات اللحظة دعائم الإيمان بهذه الممارسة العملية التى تنعكس آثارها على الباطن رسوخا وثباتا .

ان النفس الموصوله بالحق . الماضية على طريق الخير طاعة لأمره سبحانه . حتى وان عرضت لها من الشيطان عوارض . تبقى دائما على عهدها القديم . وفاء وولاء .

ولا يفقدها الصراع الدائم قدرتها على الكشف . ما بقيت سائرة على الدرب .. محققة منهجها فى واقع الحياة على نحو صارم .. لا يجامل فى الحق .. والمتقون فى هذا المجال فرسان الحلبة .

وحين نقرأ قوله تعالى :

(فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى)

يبرز دورهم العملى الذى ينعكس على الباطن ضياء كاشفا .. يميزون به الخبيث من الطيب .. فينفرون من الأول . ويمضون الى الثانى .

أن الحركة الذاتية طاعة لله تقوى الملكات النفسية فى كيان الإنسان .. وتمنحه قدرا من الطاقة .. يعينه على قطع مرحلة أخرى عبر الطريق الطويل ..

وفى هذا المعنى نقرأ إما قاله المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه « دستور الأخلاق فى القرآن » وهو يتحدث عن أثر النشاط المادى فى حركة الحياة :

الذى (يصبح دوره مزدوجا : فبدلا من أن يجنح بنتائجه إلى الخارج فقط . يستدير فى الوقت نفسه إلى الداخل . ليقوى استعداداتنا الفطرية . ويزيد فى تأصيلها .

ألم يؤكد القرآن أن الاحسان يثبت النفس فقال جل ذكره .

« ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم »

ويطهر الإنسان . ويزيد فى قيمته :

« تطهرهم وتزكيهم بها »

وهذا هو شأن الأعمال الصالحة كلها كما قال الإمام الغزالى .. فالغرض منها أساسا تغيير صفات أنفسنا .. قال الإمام :

(فلا تظن أن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا . من حيث أنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل أنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب .

فإن من يجد فى نفسه تواضعا .. فإذا استكان بأعضائه .. وصورها بصورة التواضع . تأكد تواضعه .

ومن وجد فى قلبه مودة على يتيم .. ، فإذا مسح رأسه وقلبه تأكدت الرقة فى قلبه) ويقول قبل ذلك :

(وإذا حصل أصل الميل إلى المعرفة . فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه . فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب . وإرادتها بالعمل

تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة . حتى تترسخ الصفة . وتقوى بحبها . وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر . وربما زال وانمحق . بل الذى ينظر إلى وجه حسن مثلا . فيميل إليه طبعا ميلا ضعيفا . لو تبعه وعمل بمقتضاه . . فداوم على النظر والمجالسة ، والمخالطة ، والمحاورة . تأكد ميله . حتى يخرج أمره عن اختياره . فلا يقدر على النزوع عنه .

ولو فطم نفسه ابتداء . وخالف مقتضى ميله . لكان كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل .

ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة . وترك المعاصى بالجوارح . . لأن بين الجوارح والقلب علاقة . . حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر . فالقلب هو المقصود . والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود) .

وبهذا يتضح دور المتق فى ترقية الحياة .

فليس هو ذلك الهارب فى مغارة جبل أو مدخل .

بيد أنه الصورة المتحركة . . التى تملأ العيون . . وتؤكد بحركتها ذاهبة آيبة قدرة الإسلام على بناء الإنسان الفاضل . . والمجتمع الفاضل . . لقد حرص أعداء الإسلام على صنع نماذج تنتسب إلى الإسلام إسما . . حتى إذا رآها السطحيون حكموا على الإسلام من خلالها . . ثم ضعفت ثقتهم بالإسلام تحت ضغط هذه الدعاية الكاذبة الخاطئة . . وواجب الدعاة أن يكثروا العمل . . تدعيما للنظام . . لا أن يكثروا القول تشدقا بالكلام . . وإذا كان المتق كما قال : الحكيم الترمذى :

«بمنزلة رجل خرج من الحمام . . وقد تطهر من الأدناس والأوساخ»

ولبس ثيابا بيضا فإذا رأى غبارا أو هاجت رياح . توقى على رأسه وثيابه أشد التوقى) .

إذا كانت هذه صورة المتقى . . فإن دوره يأخذ شوطا آخر على طريق العمل الإيجابى . . ذلك الدور الذى لخصه الحكيم الترمذى هنا أيضا بقوله:

(. . وأن يحدوهم على الخيرات . . ولا يدعوهم إليها)

أن تكون له فى رسوله ﷺ أسوة حسنة . . فلا يكتفى بالدعوة المجردة إلى الخير . . بلسانه . . بل يحملهم عليها بعمله أولا .

إن خطبة بليغة . . رائعة . . أفضل منها عمل واحد . . تراه العين . . ويسجله التاريخ .

المتقون والبصيرة الكاشفة :

يتميز المتقون من الناس كما يتميز الماس من الفحم . . وهما من أصل واحد ! إن فص الماس يتحمل الضغط العالى . . وكلما صبيت عليه النار . . ردها إليك نورا :

أما الفحم : فهو الفحم دائما :

ظلمات بعضها فوق بعض :

وعلى كثرة ما تحمل الأرض من ألوان البشر . . فإن جماهير غفيرة تمضى على وجوهها . . مدفوعة بغرائز الأنانية . . محكومة بمنطق المنفعة :

خلقوا .. وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا .. وما خلقوا
رزقوا .. وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا .. وما رزقوا !

ومن دون هؤلاء جميعا يمضى المتقون على سواء الصراط :

هداة إلى الحق .. دعاة إلى الخير ..

وكأنما أقامهم الحق سبحانه حجة على الناس .. ليفتحوا أبصارهم على نماذج منهم .. يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق مثلهم .. لكنهم عاشوا فوق مستوى المنفعة .. وحين نزعتهم من الدنيا نوازع الشهوات .. تخطوا الحواجز النفسية .. واتخذوا إلى الحق والخير سبيلا :

يقول الحق سبحانه :

(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

قل أؤنبئكم بخير من ذلكم :

(للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) !

فالحياة بكل ما فيها من صور المتاع مبسوطة أمام كل الناس .. حتى المتقين منهم .. والقدرة على الاستمتاع بهذه الطيبات قاسم مشترك بين الناس جميعا .. وعندما يقف أكثر الناس بوجودهم فى السفح .. وعند مستوى المنفعة الحسية بنسائهم . وأولادهم ، وأرضهم .

فإن المتقين على ما فيهم من غرائز الجنس ، والأبوة ، والتملك — مثلهم — إلا أن الحياة تبدو فى أعينهم فى حجمها الطبيعى :

وهذه الشهوات ، كما تشير الآيات :

«متاع» .. محدود القيمة .. سريع الزوال .

ثم هو «متاع الحياة الدنيا» .. لا يشكل هدفا بعيدا .. تشد إليه الرحال .. ويشق من أجله الرجال!

ويفتح السياق القرآني هنا أبصار الصفوة على أفق أعلى .. ليتذوقوا النعمة الحقيقية من وراء ذلك كله :

(قل أؤنبئكم بخير من ذلكم)

إن المتقين يحبون النساء .. ولكن قصد العفاف ، وكثرة الأولاد .. ويحبون الخيل المسومة .. إعداداً للمعركة الفاصلة بين الحق والباطل .. وأولادهم متعة الحس والنفس .. بيد أنهم لا يتحولون إلى فتنة تلهى عن مطالب الإيمان .

إن الشعور بجمال الحياة مطلب في منهج التقوى .. جمال الحياة .. في ظاهرها وباطنها على سواء .

ومعنى ذلك أن التقوى تمنح أربابها حساً بصيراً بعواقب الأمور .. ينفذون به من الشكل إلى الموضوع .. من القشرة إلى اللب .. إيثارا للباقي على الفاني .. وضنا بطاقات النفس أن تطير شعاعا على موائد الترف والمجون . وفي الوقت الذي يتقلب فيه المترفون بين أعطاف النعيم .. وحينما يدلون بما يملكون من مال وسلطة .

وعندما يخرجون على الناس في زينتهم .. بما لها من بريق خداع .. فإن المتقين لا يتخلون عن دورهم أبدا .

(لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد .

لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار)(١) .

وإذا أحسن المتقون استقبال النعيم الدنيوى، فكان فى حسابهم معراجا إلى أفق أعلى ، فإن ملكاتهم النفسية والعقلية تحسن أيضا استقبال واردات الهداية :

تقرأ ، وتفهم ، وتوازن ، ثم تختار .

إن القرآن الكريم معروض أمام كل الناس ، لكن الكثرة الكاثرة لا يأخذون منه إلا كما تأخذ هبة النسيم العابرة من الروض الناضر .

أما المتقون ، فهم وحدهم المنتفعون به ، الذين يملأون صدورهم من عبقه ، وقلوبهم من حقائقه :

(ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)(٢)

وعندما تختلط السبل أمام السالكين ، فيشتجر الخلاف ، ويغيم الجو ، ويختلط الحق بالباطل ، وتحتوى الناس حيرة قاتلة تصبح التقوى حينئذ طوق النجاة ، وفرقانا يميز به المتق الخبيث من الطيب ، والباطل من الحق .

(يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيآتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم)(٣) .

إن القلب الموصول بالحق لا يخطيء الحق أبدا ، وما أعظم الفضل حينئذ ! : فبينما يضيع العصاة أوقاتهم ويبددون طاقاتهم فى محاولات الخروج من فتنة الحيرة .

فإن طاقات المتقين وأوقاتهم مرصودة لبناء طوابق عليا ، فوق

---

(١) آل عمران ١٩٦ : ١٩٨ . (٢) البقرة ٢ .
(٣) الأنفال ٢٩ .

الأساس السليم ! بما منحهم الله تعالى من بصيرة يكشفون بها معالم الطريق ، وحتى فى لحظات الخطر المحدق ، فإنهم يبصرون سنن الله فى النصر والهزيمة فلا يبطرون فى الأولى ، ولا ييأسون فى الثانية :

(قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)(١) .

وهذه السنن الالهية الماضية فى الاجتماع البشرى واضحة كالشمس ، تملأ العيون ، وتدركها العقول .

ولكن بعض الناس لا يرى الشمس حتى فى الضحوة الكبرى ، وإذا رآها ، فكأنها شىء لا يعنيه !

ويتفرد المتقون بالرؤية الواضحة لحقائق الكون والحياة :

إنهم يفتحون كل منافذ الحس فيهم ، فإذا هم على الحق سائرون ، يجددون بالعمل ما ولى من قيم ، ويمسحون بالتوبة ما يعلق بهم من غبار الطريق ، إنهم ليسوا « آلات تصوير » ، إزاء ما يشاهدون ويحسون ، وإنما هم أجهزة استقبال لواردات الهداية ، تعطيهم الآيات أسرارها لتصبح فى كياناتهم لا مجرد معرفة نظرية وإنما (هدى وموعظة) تستجيش قلب الإنسان وعقله ليقبل بكيانه كله على أمر الله تعالى .

وفى غمرة الاندفاع فى معركة الحياة تكون للمتقين مع الشيطان جولات ، قد يحقق فيها الشيطان نصرا ولكنه النصر الجزئى المؤقت، والذى يصحو المتقون فور حدوثه على صوت النذير آتيا من أعماقهم ، والذى لا يغيب أبدا على ما يقول سبحانه :

---

(١) آل عمران ١٣٧ : ١٣٨ .

(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)(١) .

وتطالعنا الآية الكريمة بأمور :

١ — الذين صارت لهم التقوى ملكة راسخة ، لن يكونوا بمفازة من الشيطان أبدا ، ويمكن ليده أن تناوشهم لحظة .

٢ — وأن هجمة الشيطان على حمى المتقى تنحسر فى النهاية عن مس خاطف واجف ، لا يحدث فى بنائهم صدعا ، ولا فى قلوبهم وهنا ، ولا فى بصيرتهم غيا .

٣ — وأن حساسية قلوبهم تجاه المعصية تجعل رد الفعل صحوة كبرى يخنس لها الشيطان بعيدا .

٤ — وهذا الضمير اليقظ لا يغيب أبدا كما يفيـــد التعبير القرآنى : (فإذا هم مبصرون) .

وكيف ؟ :

إذا ضاعت ساعتك ، فبحثت عنها فوجدتها ، فمعنى ذلك أنها غابت عنك زمنا ، ثم ردها البحث إليك .

أما إذا تفقدت ساعتك التى ظننتها قد ضاعت فإذا هى فى يدك ، فمعنى ذلك أنها لم تغب ، ولكن الغفلة أذهلتك عنها !

فإذا قال الحق تبارك وتعالى : (فإذا هم مبصرون) . أى : إذا هم على العهد مبصرون ، لم يحرموا وهج البصيرة لحظة من زمان مهما وسوس الشيطان !

فى الوقت الذى يظل إخوان الشياطين من الغاوين فى غمرة لا تنجلى من الضلال .

---

(١) الأعراف ٢٠١ .

أما الذين اتقوا فمس الشيطان لهم على ماعرفت — مثل سحابة الصيف أو عارض الطيف سرعان مايتجلى بإذن الله .

(بل إننا إذا أمعنا النظر فى حكمة إبتلاء المؤمنين بهذه الزلازل السطحية وجدنا فيها كثيرا من الذكرى والتبصرة .

فإنما يريد الله بها أن يصهر قلوبهم بنار الخوف على إيمانهم . ليزدادوا حرصا عليه ، والتجاء إلى الله فى حفظه .

إذ من ذا الذى يرى اللصوص يطوفون حول حصنه ، ويطرقون بابه ثم يأمن أن يلجوه أو يظهروه أو يستطيعوا له نقبا .

فكذلك المؤمن :

إذا مسه طائف من لصوص الشياطين منهم خاف أن يتسوروا محراب قلبه ، وأن يسرقوا منه أنفس مافيه ، وهو جوهرة إيمانه ، لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه

ولأن الله الذى أقدر هؤلاء الشياطين على الوصول إلى باب الحصن قادر على أن يفتح لهم ويمكنهم منه)(١)

ومن هنا يظل المسلم على حذر . وعلى أهبة الاستعداد دائما لرد كيد الشيطان .. فلا ينام عن قلبه ببعض حقله .. ليظل آمنا من عبث الذئاب

---

(١) المرحوم د / محمد عبد الله دراز ، من كنوز السنة

خصائص المتقين

عندما انطلق الشيخ الوقور بسيارته عبر الطريق .. لفت إنظار الناس جميعا !

وحاولت أن أفسر هذه الظاهرة .. ظاهرة التعجب من شيخ معمم يقود سيارة ، !

ولم تطل حيرتى .

فكثير من الناس يحتفظون فى أذهانهم بصورة التدين المثلى على هذا النحو العجيب :

شيخ .. يمسك مسبحة يعد حباتها .. فى مسجد .. أو مغارة أو مدخل .. يرسل ضراعاته خافتة .. زاهدة فى الدنيا .. ولا شأن له ، بكل ألوان النشاط فى هذه الحياة .. التى تأخذ سبيلها فى غيبته .

وفى الوقت الذى يتحرك فيه مخ الملحدين .. فيخرج للناس من لدنه طائرات ، وصواريخ ، وأقماراً صناعية .

وفى الوقت الذى يعتدى فيه على رئيس دولة فينخفض سعر الدولار ويزول عنه الخطر .. فيرتفع السعر :

فى هذا الوقت الذى يحاول فيه الإلحاد توجيه الحياة لصالحه — عن جدارة — تبدو صورة التدين هكذا ، سلبية ، خامدة ، هاربة من الميدان !!

وهنا تبرز مسئولية الدعاة عن تحرير معنى التدين الحقيقى .. ليبدو المسلم كما أراده الحـــق سبحانه وتعالى شخصية باهرة القوة .. نافذة الكلمة .. تصوغ الحياة طبق منهج الإسلام

فى مجال التطبيق :

قلت للداعية بعد أن قضيت الصلاة :

ذكرت المتقين وما أعد لهم .. وصببت النذر فوق رؤوس أناس لا يجعلون التقوى شريعة لهم ومنهاجا ..

وهذا حسن ..

ولكن ما رأيك فى أن كثيرا من المستمعين يحسبون أنفسهم فى زمرة المتقين .. ماداموا يصلون ويصومون ويؤدون عملهم اليومى الرتيب .. وإذن .. فهم يعتقدون أنك توجه النذر إلى قوم آخرين .. أما هم فتقون جاهزون!

وحتى تتم موعظتك صدقا وعدلا لابد أن تفصـــل منهاج المتقين ومسئولياتهم فى الحياة .. ودورهم الكبير فى صنع المستقبل .. حتى إذا قاسوا حياتهم طبق هذا المنهج علموا أنهم ماتزالوا يتقلون الخطى فى أول الطريق ، وتفرض عليهم التقوى أعباء ثقالا . وعليهم أن يعدوا أنفسهم لتحملها ، بالخروج من السلبية المنفعلة إلى الإيجابية الفاعلة .

ولقد أراد قوم أن يجعلوا الدين شعارات .. وأن يقفوا بالتقوى عند الأشكال والمظاهر .. فلفتهم الحق سبحانه وتعالى إلى ما يجب أن يأخذ به المؤمن نفسه على طريق الكمال .. ليصل بالمعاناة — على كل المستويات — إلى حقيقة العبادة .

يقول سبحانه :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة

وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)(١)

فالمتقى بنص الآية الكريمة :

شخصية خصبة بمعانى الخير ، والحياة على اتساعها ميدان رحيب بين يديه يعمرها ، ويستثمر خاماتها .

وحيثما كان .. وفى كل مواقع العمل فإنه يحقق التقوى بمضمونها الحركى البناء .

(اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)(٢)

فالطبيب مسبحته : مبضعه .. والفلاح مسبحته : فأسه .. وقائد السيارة مع عجلة القيادة ، والصانع مع آلته ، والمهندس مع زاويته .

كل أولئك على أوفى معانى التقوى ماداموا يتقنون العمل ابتغاء مرضاة الله تعالى ..

ومادام هناك داخل النفس رصيد من معانى البر يمتد بها وجود المسلم عبر المستقبل : إيمانا بالله .. وبالآخرة .. وعالمية تتجاوب مع كل رسالة ورسول على مدار الحياة ..

وتعاونا على البر والتقوى يقيل عثرة المحتاج .. ليزداد به البنيان قوة وتماسكا وصلة بالله تعالى تحت كل الظروف ، وصبرا كصبر المرسلين يتشبث

---

(١) البقرة ١٧٧

(٢) الحديث فى ج الصغير برقم ١١٥ وروى بثلاثة أسانيد الأول صحيح والثانى حسن والثالث ضعيف .

بهذه القيم .. ويدافع عنها .. بل ويموت فى سبيلها .. لتظل الحياة فى صحبة الإيمان متجددة أبداً .

إن الإيمان بالله عز وجل عقيدة ..

وعقيدة ينشئها الدليل العقلى .. والمشهد الحسى ..

وعن هذه العقيدة الراسخة تنشأ الملكات النفسية فى كيان الإنسان ..

ثم تتحرك إرادة الإنسان بتوجيه تلك الملكات .. حركة جسمية ينتقل بها الدين من أمل فى القلب إلى واقع نابض بالحيوية والنماء ..

فالتقوى : مصدرها القلب العامر بالإيمان تفيض من القلب على الجوارح فتملأ العالم عدلا وحكمة .

وهذه هى تقوى المؤمنين :

لا يعرفون بأزياء .. ولا عادات ..

وإنما يعرفون بالعمل الصالح . ومكارم الأخلاق .

أما تقوى غيرهم :

فإنها تفيض من الأزياء والعادات والاصطلاحات . والقلب فارغ .. فالظاهر مبدؤها ومنتهاها .. فمن تمسك بزى العلماء الذى اصطلحوا عليه مثلا فهو تقى مهما كان فؤاده فارغاً .

ومن خالفهم زيهم . وعادى عاداتهم .. مهما وافق الدين. ومهما امتلأ قلبه إيماناً وحكمة .. وقامت الدلائل الواضحة من الوجود على إيمانه وفضله ووفور تقواه وعلمه .. فهو من الضالين المضلين .

ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين(١) .

---

(١) المرحوم الشيخ على الزنكلونى الدعوة والدعاة ٦٤

إن العقيدة الراسخة فى النفس .. تسير الأجسام فى اتجاهها وطوع إرادتها ..

لأن حركات الأبدان — كما يقولون — تابعة لحركة النفوس التى تولدها المبادىء ..

.. ومن هنا كان المنافقون مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء(١) لأنهم فقدوا المبدأ الذى يثبت الأقدام على الطريق ..

ومع هذه الحركة الدائبة المباركة .. وهذا الجهد الموصول لترقية الحياة يستشعر المتق دائماً عظمة ربه سبحانه .. ثم ضآلة الجهد المبذول فى مرضاته .. ومدى حاجته إلى عونه ومغفرته أبداً ..

وصيرورة هذه الحاجة شعاراً معلناً فى الليل إذا سجى والنهار إذا تجلى :

(الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار)(٢) .

وبهذا المستوى العالى من الالتزام بالطاعة صارت التقوى مقياس الفضل .. ومركز الدائرة .. يقترب منها العمل فيأخذ قيمته الحقيقية .

(وأن تعفوا أقرب للتقوى)(٣)

(اعدلوا هو أقرب للتقوى)(٤)

---

(١) النساء ١٤٣
(٢) آل عمران ١٦ : ١٧
(٣) البقرة ٢٣٧
(٤) المائدة ٨

المتقون .. حداة القافلة :

وكأنما أعدت الجنة للمتقين وحدهم . وعلى الذين يتطلعــون إليها أن يسيروا على دربهم : ليفوزوا مثلهم بنعيمها :

ومعالم الدرب هي :

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين .

والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون)(١) .

فلايستحق دخول « جنة عرضها السموات والأرض » إلا الذين حولوا الدنيا أولا من حولهم إلى جنات حافلة بالبر والخير .

وذلكم هم المتقون !

(الذين ينفقون فى السراء والضراء)

ولا تحدد الآية الكريمة المفعول هنا .. لتدل على أن الإنفاق صار لهم عاطفة سائدة .. يبذلون بها المال طبعاً لاتطبعاً .. سجية تلك فيهم غير محدثة .

ينفقون فى كل وقت .. وكلما دعا إلى الإنفاق داع ولا يتم لهم ذلك بطبيعة الحال إلا إذا كانوا خلايا حية .. يكدحون ويعملون .. ليكسبوا مالا يقف بهم فى صف المنفقين هكذا بسخاء .. وبإستمرار !

---

(١) آل عمران ١٣٣ : ١٣٥

وتتراءى بذلك صورة المتقى بلحيته الشعثاء المرسلة .. وسمته الوقور . معزولا عن الحياة .. مع المسبحة .. والدموع .. لترتسم صورة المتقى الحقيقى من واقع الآية الكريمة .. والتى يبدو بها مع ماسبق شخصية إيجابية . لها دورها .. ولها كذلك وزنها فى دنيا الناس .. وأثرها البارز فى صنع الأحداث .. بل وفى توجيهها لصالح الإيمان .

ومن صور البلاء على طريق التقوى مايلاقونه من عنت البخلاء والثقلاء والحمقى .

وإذا كان الكاذب يكره الصادق .. والمنافق يكره المؤمن .. فإن المتقى سيلاق من ذلك عنتاً .. على قدر مايملك من ثروة أخلاقية .. وهو مطالب بتضحية أخرى يجاوز بها هذه السدود المعترضة لتمضى قافلة الخير على هدى من الله .. والتى يريد العاصون لها أن تتوقف .

(والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ان بذل العواطف الكريمة إزاء هؤلاء المعوقين .. لون آخر من البذل لايقل عن أخيه خطراً .

ولا يعنى ذلك كله أن يتحول المتقى إلى ملاك يمشى على الأرض .. بل أنه بحكم بشريته ومعاناته .. واتساع دائرة نشاطه عرضة للخطأ .. ربما أكثر من غيره !

وقد يسقط فى الامتحان يوما .

قد يرتكب خطأ .. على مستوى الفاحشة !!

بيد أنه لايستسلم .. ويرتفع بالذكر الدائم .. إلى أعلى .. إلى مكانه الحقيقى :

(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون)

قضية الساعة

وتبرز هنا حقيقة كبرى جديرة بالبحث والنظر .. من لدن شباب يعملون اليوم فى حقل الدعوة جاهدين :

أنهم يريدون الحياة جنة .. والناس فيها ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

مع أن الآية تلفتهم بقوة إلى أن المتقين - وهم قمة الإيمان - قد يخطئون ومع ذلك لو عادوا إلى الله فانه يتقبل عنهم توبتهم ..

ومفروض على هؤلاء المتحمسين أن يضيفوا إلى الحماس المندفع ادراكا عليا يزيدهم بصرا بطبائع النفوس كما رسمها القرآن .. ليواجهوا الخطائين بالسماحة والعفو ..

والا فالعنف هنا ماهو إلا أزمة فشل تهزمون به أنفسكم قبل أن تهزموا الآخرين ! ولنعش مع صاحب الظلال وهو يقول تعليقا على هذه الآية الكريمة موضحا المعنى :

(يالسماحة هذا الدين !)

أن الله سبحانه لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم . حتى يطلعهم على جانب من سماحته - سبحانه وتعالى — ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا ! : أن المتقين فى أعلى مراتب المؤمنين ..

ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تلك فى عداد المتقين .

(الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) .. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها .. ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها من رحمـــة الله . ولا تجعلهم فى ذيل القافلة .. قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة .. مرتبة

« المتقين » على شرط واحد .. شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته :

أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم .. وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة .. وألا يتبجحوا بالمعصية فى غير تحرج ولا حياء .. وبعبارة أخرى أن يكونوا فى اطار العبودية لله .. والاستسلام له فى النهاية .. فيظلوا فى كنف الله . وفى محيط عفوه ورحمته وفضله(١) .

أن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشرى .. الذى تهبط به ثقلة الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة .. وتهيج به فورة اللحم والدم .. فينزو نزوة الحيوان فى حمى الشهوة .. .

يدرك ضعفه فلا يقسو عليه .. ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه .. حين يرتكب الفاحشة .. .

شىء واحد يتطلبه :

ألا يجس قلبه . وتظلم روحه فينسى الله ..

وما دام يذكر الله .. وما دام فى روحه ذلك المشعل الهادى .. مادام فى ضميره ذلك الهاتف الحادى . . مادام فى قلبه ذلك الندى البليل . . فسيطلع النور فى روحه من جديد .. وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد وستنبت البذرة الهامدة من جديد ..

أن طفلك الذ يخطىء . . ويعرف أن السوط ـ لا سواه ـ فى الدار . . سيروح آبقا شاردا .. لا يثوب إلى الدار أبدا .

فأما اذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يدا حانية .. تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب . . وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة . . فانه سيعود) (١) .

---

(١) فى ظلال القرآن ـــ آل عمران

لقد ابتلى الإسلام بقلة من الناس يقتحمون على الآخرين حياتهم .. وانهم ليعطون أنفسهم سلطة التحريم والتحليل ومحاسبة الخلق .. فيما يشبه الوكالة الضمنية عن الخالق سبحانه وتعالى !!:

يجادلون بالسنان — لا باللسان .. بالهراوة .. لا بالقلم !!

وقد نسلم دعوى أنهم يحبون الحق .. لكنهم لا يرحمون الخلق .. واذا كان الخالق جلا وعلا ينشر رحمته .. للعصاة من خلقه فما أجدر أن يفتح المخلوق قلبه .. ليتسع لأخيـــه الانسان فى لحظة ضعف قد تحتويه مثلها غدا ..

دعاء

اللهم اغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك ، واعف عن تقصيرنا فى طاعتك وشكرك ، وأدم لنا لزوم الطريق إليك ، وهب لنا نورا نهتدى به إليك ، واسلك بنا سبيل أهل مرضاتك ، واقطع عنا كل ما يبعدنا عن سبيلك ، ويسر لنا ما يسرته لأهل محبتك ، وأيقظنا من غفلاتنا ، وألهمنا رشدنا ، وحقق بكرمك قصدنا ، واسترنا فى دنيانا وآخرتنا ، واحشرنا فى زمرة المتقين ، وألحقنا بعبادك الصالحين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميـــع المسلمين الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين . وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .